سراب المجـــد

الحب يقهر كل شيء

قرمبيل

للأستاذ محمد محمود زيتون

جلس الرفاق على الشاطىء وأداروا وجوههم إلى البحر وكانت الشمس تهوى إلى الغروب . وفيما وراءها الأفق الجريح يتعثر في حواشيه الرقاق ، صارخا متشبثا بأذيال هاجرة لن تعود، وسرعان ماسيطر الذهول على الجميع فقال أحدهم : ليتك الآن بيننا يا (حماده) فتصوغ هذا المنظر شعراً من نبغ خيالك : رحمك الله من نجم علا ثم هوى . وساد الصمت مرة أخرى ثم استطرد أنور يقول :

عرفته منذ كنا صغيرين في مدرسة القرية — خجولا وادعا، والتقينا بمدرسة رأس التين الثانوية ، ولكنه رغب في العباسية الثانوية . قال لي يومذاك . لن أبقى إلا هذا العام في رأس التين وسألحق بعده بالعباسية : بناؤها مهدىء لأعصابي . وموقعها على هذا التل المرتفع يوحي إلى نفسي بالسمو والرفعة .

وقضى حماده بقية سنته الثانوية بالعباسية التي كشفت فيه عن طموح باكر ، ونبوغ سابق الأوان فذاع اسمه في الشرق وناديه ومجالسه الشاعر . الرياضي . الواعظ . الفنان . فقد كان يهلوان المتوازيين والمقلة . وشاعر الطلبة . وإمام مسجدهم . وخطيب كل إضراب . وواعظ القرية . وكان إلى هذا كله ممثلا وموسيقيا بارعا ولمع اسمه في الصحافة

ولم يفتني قط الاستماع اليه في كل مناظرة أو محاضرة ، أو الاطلاع على خواطره المسكوبة في الصحف والمجلات

شخصية محبوبة مرحة في غير ابتذال، وخلق كالجبل الأشم. أقام (حمادة) في حجرة على سطح منزل مرتفع . فعرفت أن هذا « البرج العاجي » هو مبعث الهامه ومصدر فنه . وهناك أرهف حسه لتهاويل الطبيعة . فامتزجت بروحـــه وانداحت على وجهه بسمته وإشراقه .

والتحق بالجامعة ، وطلب (الآداب) وأخلص بل تفانى في دراستها . وزاد تألقه ولمعانه بين زمـلائه . وذاع صيته ، ولست اخفي ما كان يجيش في نفسي نحوه من عواطف شتى هي مزاج من حب الخير له ، والغيرة منه ، والعطف عليه ، والانجـذاب اليه ، والدفاع عنه . . مع قليل من الحسد كنت أكتمه وأضغطه وأدفنه جاهداً حتى انحدر في نفسي إلى كهف سحيق عميق .

وكيف لا أغار ونحن من قرية صغيرة تكاد تكون الوحيدين من بين المتعلمين الذين أفلحوا وواصلوا التعليم . ثم كيف لا أنجذب إليه وهو ليس غريبي في شيء . وأخيراً قلت لنفسي : إن (حمادة) سيكون فخرا لقريته بل لوطنه ، فهو جدير بحبي وإخلاصي ، وكلما سئلت عنه لا أملك غير الإعجاب به والإكبار من شأنه .

وكنا مما في إحدى العمائر القريبة من الحي الجامعي ، بقينا به حتى تخرجنا ، أما « حمـادة » فقد ذهب إلى الاسكندرية يبحث عن أفق أوسع لميوله ومطامحه ، وبقيت أنا تحت التمرين في مكتب محام شهير .

وفي هذه الفترة أحسست بالفراغ الذي تركه حمادة ، وأخذت أطالع كل يوم أخلاطا من الطباع والعقول والأرواح . فأحسست بمرارة الغربة عن كل من حولي ، وانطويت على نفسي كالثعبان . والغربة المريرة والبرد القارس سيان في هذا ... ولا أدري ما وجه

وعقلية الطفل المحدودة .

وبالرغم من الطرق الكثيرة التي نستعملها في تعليم الأطفال فإني قد تركتها جميعها جانبا ، واستعملت تلك الطريقة مع طفلي وقد حفظ جزءين من القرآن الكريم قبل أن يبلغ السابعة من عمره وهو الآن يشق طريقه بخطى ثابتة في التعليم الثانوي محرز العقيدة ثابت البنيان ، وفي الطليعة !

فما رأي رجال التربية في طريقة الاقدمين ؟ ...

شطانوف — محمد منصور مغضر

الشبه بينهما ، ولكن هكذا كنت أحس ... وهكذا كنت فعلا ... ولا سيما يوم سرى الدفء فى أوصالى . يالله من يوم .. يوم اجتمعت مع الرفاق فى منزل أحدهم .. يوم عيد ميلاده هو وميلاد شقاوتى أنا .. يوم أديرت الكئوس ، وتطوحت الرءوس ورقصت الغانية عارية ، إلا من ذلك الثوب الأحمر الشفاف ... فلم يخف فتنة ، ولم يشف لوعة .. يالها من ليلة حمراء .

كانت هذه الليلة كالشرارة التى أطلقت نفسى من نفسى .. فنفثت سمومها فى كل وكر ودوّرة .. حقا كنت كالثعبان : استبرد ما حوله ، واستمرأ الفساد ، وعسكن حتى تمكن ...

وعدت ليالها أجرر أثقالا من الآثام ، ما ألبث أن أتعثر فيها حتى أجهد فى إخفاء آثارها فى الطريق الطاهر الذى كنت أطويه صبحاً ومساء فى قدسية الراهب وبراءة الملاك .

وذاب العمود الفاصل بين الفضيلة والرذيلة أمام عينى ... نعم ذاب كالثلج ، وأحسست بإذعانه تحز فى قلبى حتى تجمد فى صدرى .. فلم يعد كما كان ...

واعتزلت ، وتخلفت عن ركب الحياة أسبوعا ، ورحت أحسد الأحياء وأخبط فى الظلام الملتوى المعقد ، فتذكرت ذنب الصب الذى قالوا إنه أعقد شىء فى الوجود .

وانطلقت ذات صباح إلى شرفتى ، أتخفف من أثقال نفسى ، فرأيتنى كالسمكة تخبط فى الشبكة ... فقد ملأت هذه الفتاة مشاعرى ، وما إن غابت عن نظرى فى منعطف الطريق حتى عدت إلى مخدعى بفكر جديد أو قلب جديد .. وأخذت أرقبها كل صباح ومساء ذاهبة آيبة إلى جامعتها ، كتبها تحت إبطها ، وعينها إلى الأمام ، وكانت فى خيالى كالفجر النادى يتمناه قلب شفه السقم ، وأضناه الظلام ... وسميتها « ريحانتى الطاهرة » ، وما كان أليق هذا الوصف بمن صحا عليها قلبى بعد غفوة أنسته أحلام الربيع .

وذات صباح ، طرق الباب طارق ، فإذا بساعى البريد يحمل إلىّ من (حماده) خطابا ، أعتز به ، فلا أنسلى عن هموى إلا بتلاوته ، وإلى لقارىء عليكم قصة أحلامه وأحلامى أودعتها وإياه حطام قلبين ذابا فى سراب .

الاسكندرية فى ٢٠ أبريل

أخى أنور

أحييك وأرجو لك الخير كله . شاءت الأقدار ان تباعد بينى وبينك ، فقد عينت معيداً بجامعة فاروق ، وأنا الآن بصدد إعداد رسالة الماجستير فى ميتافيزيقا الوجود الذهنى ، .. وكنت أظن يا أخى أن الإسكندرية ستلقانى ببحرها الصافى وسمائها الباسمة ونسائمها الرقيقة ، ولكنها تنكرت لى ، وتجهمت فى وجهى ، وضاقت بى وضقت بها ...

أخى : وفاؤك لى ، وعطفك على يدفعانى إلى أن أبثك الآن بعض ما بى لعلى واجد فى رحابك ما يزحزح هذا الجبل الرابض على روحى .

أنور : أكتب إليك ، وأنا ألقى بنظرى إلى البحر من الميناء الشرقى ، والعاصفة القاتمة تلحفنى سمومها ، وتعوى أصداؤها كالذئاب ، فى أحناء ضلوعى ، والسماء ... نعم السماء التى كانت تزهى فى الليل والنهار ، تلفعت بالسحاب الأسود ، يقطر الدم من حواشيه ، وأزهار الشرفة قد جف ريقها واحترقت أنفاسها ، وتبدل شذاها غبارا ، « غصة فى الحلق » .. لم أعد أطيق المكث هنا .. ولا تحسبن جديداً فى حياتى طرأ على نفسى ... ولكن ... ماذا أقول ؟ منذ فارقت العمارة ، فإن فى النفس ذكريات ... سأذهب إلى الريف أقضى يومين ثم أعود ، والسلام ،

حمـــادة

الجيزة فى ٢٣ ابريل

تحية الحب والوفاء ، وبعد فقد ألمت بى محنة ألزمتنى الفراش أسبوعا ، لم أصح منها إلا على خطابك . تلوته ، فأفقت مما أنا فيه ، ولست أتردد فى أن أبث اليك بخالص شكرى على أن خصصتنى ببث شكواك .

وإذ يصلك خطابى أرجو أن تكون قد نفضت عن نفسك غبار إعصار فيه نار .

حمـــادة

عرفتك ذا الوجه المشرق البسام ، فلا تكن غير ذلك ، وإياك أن تستسلم لأفكارعمى ألا تكون غير أوهام . ألا ترى أنى كنت إلى حين تسلم خطابك فريسة لواعج فرت وبرت ماشاء منى ، فكنت — بلا مبالغة — كفنار الاسكندرية يبعث نور الأمل لسفينة غارقة فى اقباء الحلك .

أخى :

هات ما عندك ، واطرح على ما شئت ، فانما أنت ذخيرة لا يستهان بها ، وثروة فى النبوغ تزهى بها خزائن المجد . ولست من الهوان على أخيك حتى يتركك لما أنت فيه . وحذار أن تسترسل . وحذار أن تيأس.

أخـــوك

أنور

الاسكندرية في ١٥ يونيو

ما توانيت في الرد عليك عن قصد ، فقد أصبحت كالزورق الحيران لا شراع ولا مجداف ، تتناوحت به الريح ، وتتناهبه الأحداث . ولا سيما بعد أن خلوت من أعباء العمل ، وصرت شلوا ألقى به إلى ذئب مسعور . تلك هي نفسي الضارية . وبلي منها . لقد صرت أمقتها وأنكرها . أهكذا تنهشني ، وأنا الذي روضتها في المهد ، فأحسنت ترويضها ، فلما استقامت لي لم أحرمها من لذائذ الحلال شيئا . يالها من خائنة !

أخي :

لن أفضي اليك برماد النار . بل بجذوتها . أرأيت المنارة التي كنا ولا نزال بها أنت . وأنت خارج من بابها إلى يمين . بعد منزل أو منزلين ، أرفع بصرك الى الدور الثاني . الشرفة الدائرة هناك يا أنور سر خفي لا أدري مدى تغلغله في نفسي .

تلك الفتاة كانت زميلتي في الدراسة . وقع عليها نظري فجأة فعرفت الحب من أول نظرة . كانت كالوردة لم تتفتح بعد . وإن الربيع يضفي عليها من الفتنة والجمال ما جعلني أسبح من يومها في بحر لا شطئان له . نتحدث بعد كل محاضرة ، فكان لحديثها في نفسي موقع الماء من ذي الغلة الصادي . وما كنت أشعر بالوجود ولا بالزمن بل هي اللهفة تسوقني الى النبع الصافي ، فأرتوي ، فما البث أن أظمأ من جديد

وكنت أعرض عليها بعض خدمات تقتضيها الزمالة الجامعية .. فتشكرني بنظرة وبسمة أعدها غذاء روحي في اليوم كله .. وضقت بالمجد ذرعا ، وسرعان ما انتقلت حياتي من عقلي إلى قلبي .. من أعماق الكهوف ، وأصنام الماضي إلى أحلام الربيع ، وألحان الفجر .. وقلت للمجد : وداعاً ، عد .. لا حاجة بي إليك .

ومهدت لزواجي منها بزيارة لها بمنزلها حيث استقبلني خالها ، فقد علمت أنها يتيمة الأبوين . وكانت هذه الزيارة لقلبي كالمرهم يهدهد جراحه الصارخة . وفاتحت أبي لأني خجلت من مفاتحة أبي في الأمر ، فكان رده بالموافقة على رغبتي عذبا رقيقا دمعت له عيناي ، كالطفل أعطى لعبة هو في شوق إليها ..

وتقابلنا بعدها ، فاذا بي أتحطم على « النظرة الصماء » .. نظرة أودت بالرقة والحنان اللذين كنت ألقاها منها كل صباح ..

هأنذا لا أطيق ذكرى هذه النظرة بل الصخرة .. فهل أنا واهم يا أنور ؟

حماده

الجيزة في ١٧ يونيو

أخي حماده

لك العذر في تأخيرك الكتابة إلي . واليوم تسلمت رسالتك فشفت نفسي مما تجد ، وعرفت أنك معذب بقلبك الذي لا يطاوعك ، وأيقنت أنك ماهر فيما وقع عليه رأيك ، وأطمئنك مقدما إلى أني كنت قد عزمت على ما شرعت أنت فيه . وهي في الحقيقة فتاة لها مزاياها .. ومسلكها مما يرضيك ، ويتفق مع وجهتك . . ولولا وفاة والدي ما أحجمت على مد يدي إليها . . ولولا صروف القدر الذي ذهب بذلك العطر الحبيب .. لتغيرت دنياي ودنياك .. لهذا أنصح لك بالتروي والتريث .. والصبر ، فقد اجتاز الأمر دور العاطفة وأصبح في نطاق العقل وحده . . أرجو أن تحتمل أكثر من صدمة .

أنور

وفي الصيف تقابلنا ، فأنكرت ما رأيت من حال (حماده)، وكدت لا أعرفه من فرط ما بدا عليه من إرهاق وهزال ، وبادرني مقتبطا متمردا قال : —

أهكذا يا (أنور) تقلب لي ظهر المجن .. ليتني لم أبح لك بسري .. لولا أنك كنت تعدني ذخيرة لا يستهان بها ، وثروة في النبوغ تزهى بها خزائن المجد . . اليوم أفلست تلك الخزائن ، وذهبت أسطورة النبوغ أدراج الرياح . .

والتزمت الصمت ، وكلفت نفسي عسرا لأصطنع ابتسامة . ولكن دون جدوى ، حتى أعرض عني (حماده) وتولى كالعاصفة . ولقد خشيت — إن أنا بحث له بالأمر — أن يقع عليه كالصاعقة ، فتأتي على ما تبقى من هيكله المهدود . ولكن آثرت كتمان خبر انتحارها ، ورضيت منه بتهمة سوء الظن التي رماني بها رفيق الصبا ... ولو كان في حطام نفسه بقية لأدرك ما كنت أعني بذهاب العطر الحبيب في خطابي الأخير

ولست أدري بعدها كيف بلغه الخبر ، فذهب إلى قصر النيل والتف بذراع الموجة العذراء ، وغاب في اليم بتراب الكأس الذي احترق فيه نبوغ الشباب .. وهنا تنفس أنور الصعداء ... وأجهش للذكرى ، ثم قال : أما أنا ... فكتمت السهم في كبدي

محمد محمود زيتون